مكتبة الإسكندرية

القراءة الكبرى

أن تقتل طائرًا بريئًا

هاربر لي

عنوان المقال: رواية بالألوان

الاسم: غادة فتحي أحمد

كلية التربية

إن من أبلغ ما قرأت عن القراءة هو قول عباس العقاد "حياة واحدة لا تكفيني، والقراءة تمنحني أكثر من حياة" وحين انتهيت من قراءة رواية (هاربر لي) شعرت بأنها نقلتني عن عالمي، وحلقت بي في جوف السماء، فأصبحت أنا ذاك الطائر المرسوم في أسطر روايتها، ومع كل فصل كانت تهديني روح الحياة، حتى وصلت لآخر فصل: فخلفتني مع حالي، تاركة في عيني دمعة، وعلى شفتي بسمة، وفى عقلي تساؤل: هل سأحيا وأستمتع مع ملحمة أدبية أخرى لـ (هاربر لي) ...

إن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» هي أول رواية أطلع عليها في سنوات عمري المعدودة ... ولي أن أفخر بقراءتها ٠

فهذه الرواية أثقلت فكري، وأثارت انتباهي، واستدعت قلمي: فأبدع من هذه التحفة الفنية مقالة أدبية، وفصل لها ثوبًا من ستة ألوان:

أولها الأحمر:

«أن تقتل طائرًا بريئًا» ... لقد نجحت الكاتبة في أن تثير التساؤل داخل عقلي لمجرد قراءة هذا العنوان، وقامت برعاية هذا التساؤل وإنمائه مع كل فصل من الرواية. فعنوان الرواية هو بمثابة المفتاح لها، وقد يلجأ البعض إلى استخدام مفتاح مزور – مثل كتاب (why we suck?) فحينما سئل كاتبه عن هذا العنوان قال: "أردت أن تضحك الناس حينما تقرأ العنوان"، ومع احترامي الكامل للكاتب فإنه حتى فشل فيما أراد، أراد هذا الكاتب مخاطبة شفتي، بينما اصطفت (لي) هذا العنوان لتخاطب به عقلي أولاً، وتولد لديّ تساؤل يدفعني من سطر لآخر ...

من هو ذلك الطائر الذي ترمي إليه (لي) ؟!

هل هو (بو رادلي) الذي أجبر على العزلة في عشه، وعلى الرغم من ذلك تصارخت الأفواه بالشائعات عليه، أم ربما تقصد الكاتبة (الآنسة مودي) واحتراق عشها دون سبب يذكر، أم

هو القشة التي قسمت ظهر أمريكا (توم روبنسون) الذي أدين بجريمة هو بريء منها براءة الذئب من دم بن يعقوب.

وحين أسقطت هذا الطائر في عالمنا العربي لم أجد له عشًا في فلسطين أو العراق أو لبنان أو حتى في أحضان أوراقي ... فهل يظل ذلك الطائر شريدًا يبحث عن غصن يتلقفه من هذه الحياة العكرة ؟ ...

ثانيًا الأبيض:

من أهم الجوانب التي لم أستطع غض طرفي عنها هي (سكاوت) حيث أن (لي) تخيرت طفلة صغيرة لتقص علينا ما تعكسه مرآة عيونها عن العالم، ولهذا الجانب مزايا منها:

١- من سمات الأطفال التي تبرز في رسمهم أو كلامهم وتساؤلاتهم: التلقائية، وبزغ ذلك بأجلّ صوره في ذكر (سكاوت) تفاصيل الأحداث والأماكن وكأننا نراها رؤية العين.

٢- إن الطبقة المثقفة في أمريكا لم تكن هي الطبقة السائدة آنذاك، لذا حاولت (لي) الوصول لكافة المستويات باستخدام تعبيرات (سكاوت) وتساؤلها عن كل شيء حولها.

٣- تحمل (سكاوت) بعض ملامح طفولة (هاربر لي) كالعناد والتشبه بالرجال ومجادلة مدرسيها، لذا يمكننا القول بأن (سكاوت) هي إسقاط لـ (هاربر لي).

ثالثًا الأصفر:

حدد الكثير من العلماء مثل (بياجيه) و (منتسوري) أهم حاجات الأطفال، والتي تتمثل في اللعب والاستماع للقصص والقراءة ومعاملتهم باحترام، وهذا ما حققه (أتيكوس) بنجاح مع طفليه، وأقرته (سكاوت) في أول فصل من الرواية، فأطلع طفلين في عمر (سكاوت) و(جيم) على أوبتك وفيكتور أبلتون، و إيدجر رايس بوروز، وتمثيلهم لأدوار طرزان وتوم سويفت.

وهذا يحتم علينا منح (أتيكوس) الامتياز، فهو أب يريد أن يغرس قيم وعقائد في طفليه، فاختار أنسب الطرق ليحقق لهم ذلك وكان خير مثال لهم .

رابعًا الأخضر:

انحصرت ذاكرة (سكاوت) في الفترة العمرية من ٩:٦ سنوات بالنسبة لها، بينما (جيم) من ١٣:١٠ سنة. ومن هنا نجحت (هاربر لي) فى أن تمثل أهم مراحل النمو التي أقرها علماء النفس من (بياجيه) و(فرويد) والمرحلتين هما:

مرحلة الطفولة المتأخرة متمثلة في (سكاوت) والتي تتسم بكثرة التساؤل والبحث واكتشاف البيئة والتفاعل معها، وتكون في هذه المرحلة القيم نابعة من الخارج، فتلجأ (سكاوت) لـ (أتيكوس) ليحكم بينها وبين (جيم).

والمرحلة الثانية هي مرحلة المراهقة متمثلة في (جيم) وتتسم هذه المرحلة بالحاجة إلى التفكير والنقد، ويتولد لديه القيم النابعة من الذات، فاستطاع (جيم) في الجزء الثاني من الرواية أن يحلل وينقد موقف المحكمة والشهود وتوصل لحكم عقلي بداخله.

خامسا الأزرق:

قامت (هاربر لي) بحصارنا دون أسوار (مايكوم) وطالبتنا بمعرفة أهلها والتفاعل معهم، ولكنها لم تفعل ذلك جبرًا، بل جذبتنا بوجه حسن متمثل في العلاقات بين أهالي (مايكوم) والتي يسودها الاحترام والتفاهم ومعرفة حق الآخر، وإذا توغلنا داخل بيت (أتيكوس) سنلاحظ ذلك في تعامله مع (كال) المربية واحترامه لطريقتها في تربية أطفاله، ولم تكتفِ (لي) بهذا الحد، بل قدمت لنا مجتمعًا بجميع جوانبه، ورسمت لنا صورًا لأشخاص تنطق بطبائعهم.

سادسًا اللبني :

قد يعيب البعض على (هاربر لي) وروايتها كونها الوليدة الوحيدة لها، ويبرر هذا الإبداع بكونه إسقاط أو سيرة ذاتية لـ (هاربر لي)، ولكني لن أتفق معه في أن ذلك عيب، فمن الواجب أن نعترف بوجود الموهبة عند (لي) ، ويمكننا أن نفسر عدم إبداعها لغير هذه الرواية بنجاح هذه الرواية، حيث إن (أن تقتل طائرًا بريئًا) وضعت (لي) في مكانة تلزمها بإخراج إبداع في هذا المستوى أو أعلى منه وليس دونه.

إن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» احتلت المرتبة الثانية مع مرتبة الشرف بعد الكتاب المقدس في أمريكا، ولن أزعم أنها ستحتل نفس المرتبة في مجتمعنا المصري، ولكنها خير أداء للمصالحة بين مصر وأمريكا بعد قطيعة دامت أكثر من خمس سنوات، وتوجتها زيارة (أوباما) لمصر.

وأخيرًا:

لن أستطيع أن أختم دون أن أتوجه بالشكر لمكتبة الإسكندرية لكونها أتاحت لي هذه الفرصة العظيمة، وأتوجه بالشكر والتقدير لمترجمة الرواية د/ داليا الشيال التي حملتني على جناح البراق إلى كل فكرة أرادتها الكاتبة.

وأحب أن أجيب على سؤالها في نهاية مقدمة الترجمة وأقول:

إنني أتفق مع (هاربر لي) و (داليا الشيال) وأجمع منهما نقطة: إن المقدمة التي تكشف لي عن مكنونات الكاتب وموضوع الكتاب وخباياه التي يجب على القارئ التوصل إليها بذاته، تُفقد الكتاب روح القراءة ... وهذا النوع من المقدمات أستنكره.

وهناك مقدمات تشوقني أكثر لقراءة الكتاب وتصفحه، وهذا ما أفضله.

وعلى العموم لو كانت كل المقدمات مثل مقدمة د/ داليا الشيال فيا حبذا، فهذه المقدمة فيها روح الإبداع والجمال.

WWW.D-3AMR.CoM